مناهج التعليم فى الأقطار العربية وكيف تكون ؟

الدكتور محمد بديع شريف

بين يدى جملة من مناهج الدراسة فى مراحلها جميعها للبلاد العربية المعنية بالتعليم ، وكتب عديدة فى فروع مختلفة من العلوم والآداب والاجتماع موضوعة على مقتضى هذه المناهج ، وصحف ومجلات من العالم العربى فى أقطاره وبينها كتب قيمة للمربين وعلماء النفس ممن تولوا شئون التعليم فيها وأبدوا آراءهم . وإذا قلبت هذه الكتب رأيت نعيما وملكاً كبيراً ، رأيت نظريات علماء الغرب وخلاصة تجاربهم قد ضمت إليها تجارب هؤلاء الأساتذة الذين قطعوا من شباب زمانهم أزهى أيامه فى بحث وتنقيب ودرس وتدريس ومع هذه التجارب آراء ناضجة جديرة بالاعتبار لا تقل وجاهتها وغاياتها عن أى رأى من آراء علماء الغرب المجربين .

وتأخذ قسما من هذه الصحف والمجلات فتجد فيها آراء أخرى بعضها يتفق مع الأولى ، وبعضها نقـــد قاس شديد القسوة على أولئك المربين وطارق تربيتهم وسير التعليم فى كل بلد من بلاد الشرق العربى ، وترى مع هؤلاء الناقدين صحة القول ووجاهة الحكم . وأهم ما يطالعك هجوم عنيف القوة على المناهج والكتب وإنك إذا أخذت منهجاً بهرتك عنواناته ومفردات موضوعاته فتنتقل من علم إلى علم ومن موضوع إلى موضوع فى المدرسة الابتدائية والثانوية ثم تخرج من معمعة تزدحم فيها عناصر المعرفة وتصطرع ، حتى كأنك ترى هذا الاصطراع ماثلا بين يديك .

ثم تتناول كتاباً من هذه الكتب فيدهشك اسمه وعنوانه وتجد نفسك بين يدى مجموعة من أجلة العلماء أكسبتهم شهرتهم ومراكزهم التربوية والادارية مكاناً رفيعاً ، وضعوا هذا الكتاب لناشىء من الناشئة يريدون له أن يكون رجل

المستقبل ، ولكنك لا تلبث تترك هـــذا الكتاب حتى تضع يدك على رأس خيط المعضلة الكبرى .

° ° °

إن هذه المناهج والكتب والوسائل نتاج رواسب خلفتها ظروف سياسية واجتماعية واقتصادية فتباينت ألوانها قوة وضعفاً تبعاً لظروف كل شعب من شعوب هذه الأمة ، فقد يفرض المنهج فرضاً وقد يرتجل ارتجالا حتى صارت المناهج تتأرجح بين أصبعى القدر وتقلبات الظروف فلم تستقر على حال ولم يقف لها أحد وقفة طويلة يرسم لها خطة واضحة شاملة تهدف إلى إنشاء جيل قوى .

دع هذا وعد عنه إلى الكتب وأمسك بيديك كتاب اللغة القومية أداة التعبير ووسيلة إظهار الفكر إلى الخارج وليكن أول كتاب تأخذه بيدك كتاب القواعد فى المدارس الابتدائية واقرأ موضوع الجملة الاسمية فى هذا الكتاب الذى يدرسه فى كل عام مئات آلاف الأطفال فى سن العاشرة أو التاسعة من العمر فان عينيك تقعان على أمثلة من طراز : الزجاج ماهر ، القاضى عادل ، الجندى شجاع ، الثعلب ماكر ، الشمس أكبر من الأرض ، القمر أقرب إلينا من الشمس ، الشمس جسم ملتهب ، والحرارة مصدرها الشمس ، شعاع القمر بارد وشعاع الشمس حار .

وإذا تأملت الكلمات : « ماهر ، عادل ، شجاع ، ماكر » وجدتها ألفاظاً ليس لمفهوم كل منها وجود فى الخارج تقع عليه حواس الرجال بله الأطفال .

كذلك لا تجد فى ذهن الطفل مفهوماً لمقارنة حجم الأرض بحجم الشمس ، ومقياساً واضحاً لمعرفة قرب القمر إلينا ، وبعد الشمس عنا ، ولا عقلية تقدر على فهم جسم الشمس الملتهب ومعرفة شعاعها الحار وشعاع القمر البارد .

هذه هى اللغة التى يستقبلها ذهن طفل فى سن التاسعة أو العاشرة من عمره فى كتاب القواعد وكتب القراءة أو المطالعة وبعد هذه السن تزداد صعوبة دون قصد ويفسح المؤلف لقلمه المجال ولفكره أن يركب متن الخيال يحلق ويترك هؤلاء الأطفال يدبون على الأرض . ويسرف المربون والمؤلفون ويمعنون

فى إسرافهم فى عرض موادها فيختارون لبلغاء الكتاب وفحول الشعراء نصوصاً من النثر والشعر يقحمونها فى كتب الأطفال ، وفى هذه النصوص الاستعارة والمجاز والكناية والتشبيه البليغ والمحسنات اللفظية والألفاظ الوحشية ويطلبون من الطفل أن يحفظها عن ظهر قلب لتكون ثروة له ولكنه لا يستفيد من هـــذه الثروة لبعدها عما يتناوله ذهنه من الأفكار .

إن اللغة القومية أو لغة الأم لها المكانة الأولى فى أصول الثقافة وترتيب الأفكار وفى تدريب النشء وتعليمهم وتوسيع مداركهم وتقوية ملاحظاتهم فاذا أخذوها فى أفكارها السامية وفى مفاهيمها التى لا وجود لها فى أذهانهم ومحيطهم ضعفت عندهم ملكة التعبير والوصف والتوى عليهم طريق التفكير وصار من الصعب عليهم إخراج الفكر إلى الوجود الخارجى ؛ إن الفكرة تلمع أولا ثم يليها التعبير فاذا كانت أداة التعبير مفهومة واضحة استطاع المعبر أن يصور فكرته ويجعلها بينة الخطوط ، أما إذا كانت خزانة ذاكرته مملوءة بمجموعة مما ذكرنا فى الكنايات والاستعارات والمحسنات البديعية والألفاظ المهجورة قصر به تعبيره عن توضيح تفكيره .

إن إساءة هذا العرض ولدت فى نفوس ناشئتنا عقدة يصعب حلها فصاروا لا يكرهون درساً كراهتهم لقواعدها وصارت ألفاظها موضع السخرية وهى هى عدتهم الأولى فى تربية العقل وتكوينه . خذ طفلين أحدهما تعلم باحدى اللغات الأجنبية الحية والثانى تعلم فى لغتنا فى سن واحدة ودرجة تعليم ، وأعرض عليهما فكرة تناسب عقليهما ثم استمع إليهما فى تصويرها وعرضها ، لاشك فى أنك تجد الأول واضحاً فى كلامه لا يتلكأ ولا يتلعثم ويعطيك الفكرة بعبارة جميلة منسقة ، أما الثانى فلا ريب فى أنه يتلعثم ويضطرب ، يحاول أن يوائم بين الفكرة وبين الألفاظ فلا يستطيع لأن الكلمات التى كان يجب أن توضح هذه الفكرة لا توجد فى خزانة ذاكرته .

ولا تثقل كاهل هذا الطفل الغض اللغة العربية فحسب بل هناك المواد الأخرى التى تلاحقه فى سنيه الأخيرة من دراسته الابتدائية هناك اللغة الأجنبية المقحمة عليه إقحاماً والتى لانجد فى تدريسها مثيلا فى بلد من بلاد العالم . إن هذه

اللغة لاتدرس إلا على حساب الثقافة الشعبية ويخرج الطفل منها فى المدرسة الابتدائية بكلمات معدودات وأرقام معلومة وكل المربين يعلمون ذلك ولكن رواسب المـــاضى لا تزال ثقيلة لا يمكن إزالتها .

ولقد وجدت فى بعض المناهج تدريس ما يسمونه التربية الوطنية أو الأخلاق والواجبات الوطنية فى منهاج آخر وقلبت الكتاب فاذا ألفيت ، ألفيت فصولا من دستور تلك البلاد نقلت نقلا دون تخفيف أو تلطيف ، فالمجلس النيابى وطريقة انتخاب النواب والحصانة والسلطات الثلاث ، ووظائفها ، ومواد أخرى لايفهمها الطفل ولا يستسيغها . وأخذت كتاب تاريخ مقرراً فى منهج من هذه المناهج للسنة الأخيرة من الدراسة الابتدائية فأدهشنى أن رأيت فيه إلى جانب دروس التاريخ المحلى دراسة الثورة الفرنسية : أسبابها ونتائجها ولويس السادس عشر ومارى انطونيت وكتاب الثورة أمثال فولتير وجان جاك روسو وميرابو وحكومة الادارة والجمعية الوطنية ، ثم ظهور نابليون وسقوطه وموقعة واترلو ، ومؤتمر فينا ومترنيخ ... وتناولت كتاباً فى الطبيعة مقرراً على تلاميذ هذه السنة أيضاً فلفت نظرى فيه قانون « ارخميدس » : إن الجسم المغمور فى المـــاء أو أى سائل آخر يفقد من وزنه بقدر وزن السائل المزاح » . فأردت أن أختبر بنفسى تلميذاً نابهاً لأرى مبلغ فهمه لهذا القانون فقرأه الطفل حرفياً لم ينقص منه شيئاً ، فقلت : ومامعنى ذلك ؟ فأجابنى : إن المعلم أمرنا أن نحفظه عن ظهر قلب ، فاذا سئلنا فى الامتحان كتبناه كما حفظناه وكفى ؛ ولاريب عندى فى صدق هذا الطفل لأنه لايدرك معنى ذلك ولا يتصوره .

وفى الحساب أثقل المؤلفون كواهل الأطفال وإن كانت المناهج لاتتجاوز الأعمال الأربعة ومتمماتها التى لابد منها ، فقد أكثر الواضعون من التمارين وضخموا الكتب فيما لا فائدة فيه ، فصار للتلميذ فى هذه المرحلة عدوان ، العربية والحساب .

أما فى المرحلة الثانوية فان المؤلفين يطلقون عنان الأقلام ويتركون الفكر والخيال على سجيتهما دون أن ينظروا إلى زمن أو سن أو مادة وحسبهم أن يأخذوا عنوان المنهج ويشرعوا فى كتابة ما يريدون ، وأول ما يطالعك فى ذلك

كتب الرياضيات فى الحساب والجبر والهندسة والمثلثات حيث تزدحم النظريات وتتراكم التمارين الخيالية التى لا تدع للطفل فى هذه السن وقتاً للموضوعات الأخرى ويصرف ساعاته فى جمع وطرح وضرب وتقسيم لا طائل تحتها ولا حدود لها وينشأ صراع عنيف بين الطالب وبين هذه التمارين المملة وقد يتغلب الطالب عليها أولا يتغلب . ومن غريب ما وقعت عليه عينى فى هذا الباب فى أحد الكتب المقررة من الحساب فى منهج من هذه المناهج هذه المسألة الخيالية لطلاب السنة الثانيـــة الثانوية، فقد جاء فى هذه المسألة : « أن مملكة مدينة بمبلغ (٥٨٩ر٠٠٠ر٠٠٠) خمسمائة وتسعة وثمانين مليوناً تدفع عليها ربحاً سنوياً بسعر ٥ ٪ فإذا كانت تسدد للدائن سنوياً ٤ر٠٠٠ر٠٠٠ جنيه سنوياً، جزء منها أرباح للدين فى تلك الســـنة والباقى لاستهلاك جزء من الدين فأوجد ما آل إليه الدين فى نهاية ٣ سنوات » .

هذه مسألة خيالية لطفل فى الرابعة عشرة من عمره يعيش فى الشرق العربى ، ما سمع قط بمثل هذا المبلغ الضخم ، ولكن المنهج يريد منه ذلك فعليه أن يقتل وقته فى جمع وطرح وضرب وتقسيم ويخسر أوقات راحته فى مسألة كلها خيال بالنسبة إليه .

وتختلف دراسة مادة الجبر فى كل بلد من البلاد اختلافاً قليلا فى تقديم وتأخير ولكنها فى ضخامتها وصعوباتها لا تقل عن غيرها من المواد ، يكفى أن أشير إلى عدد صفحات كتابين مقررين للدراسة فى عامين من أعوام المرحلة الثقافية لمنهج من هذه المناهج إنها تبلغ ٧٦٠ صفحة من القطع الكبير مشحونة بالقواعد وآلاف التمارين . ووجدت كتاباً آخر فى المـــادة نفسها لمنهج آخر مقرراً للدراسة فى ثلاثة أعوام عدد صفحات جزأيه تزيد على خمسمائة صفحة وقد أحصيت تمارين الجزء الأول منه فوجدتها تربو على ثلاثة آلاف وثلثمائة تمرين واستعرضت هذه التمارين فوجدت فيها الخيالى الممل والصعب المعقد والسهل الذى لا قيمة له . أضف إلى مادة الجبر أيضاً مادة الهندسة وتمارينها والمثلثات وتمارينها.

أما مناهج التاريخ فتكاد تكون متشابهة فى وضعها متباينة فى ترتيب موادها ، وإنك لتجد فى أكثر هذه المناهج دراسة التاريخ القديم ، وحضارات

الأمم السالفة مع دراسة التاريخ المحلى ودراسة تاريخ أوربا الحديث دراسة مفصلة فى حروبه ومؤتمراته ومعاهداته ولا أعتقد إننا نحتاج فى مرحلة التعليم الثانوى لمثل هذا التفصيل ويكفينا من تاريخ أوربا (إن كان لابد من ذلك فى هذه المرحلة) دراسة الانقلابات الصناعية والاجتماعية وما يتصل بتاريخنا منه . إن فتيان أوربا فى هذه المرحلة لايعرفون من تاريخ الشرق إلا ماحدثتهم به الأساطير عن هرون الرشيد وألف ليلة وليلة ، ولكن إذا أراد أحدهم أن يتخصص وجد المجال واسعاً بين جدران الجامعة فيتخصص ويجيد ويصير حجة لقومه فى هذه الناحية تستشيره دولته فيما يعود على قومه بالخير . ولقد أحصيت عدد صفحات كتب التاريخ التى يدرسها الناشىء فى المرحلتين الابتدائية والثانوية فى منهج من هذه المناهج فوجدتها تزيد على ١٨٠٠ صفحة .

وفى الجغرافية يدرس الطالب من سن الثانية عشرة إلى الخامسة عشرة من عمره القارات الخمس جميعها مع حكوماتها وطبيعة أرضها وثرواتها يضاف إليها بعد ذلك دراسة الجغرافية الاقتصادية والطبيعية واطلعت على دراسة العلوم لمنهج من هذه المناهج وأخذت الكتاب الذى يطابقه فى الكيمياء فوجدت صفحاته تزيد على (٦٠٠) صفحة من القطع الكبير وإلى جانبه كتاب الطبيعة وعدد صفحاته ٥٥٠ ، وكتاب علم الحيوان وعدد صفحاته (٥٤٨) مع كتاب العلوم العامة الذى هو بمثابة مدخل لهذه الكتب وعدد صفحاته (٤٠٢) . ورأيت فى منهج آخر كتاباً للطبيعة مقرراً على سنتين فى جزأين وعدد صفحاته ٧٤٦

أضف إلى هذا كله دراسة الأدب والنصوص التى تعرض فى مجموعة من أبيات الشعر فى الهجاء والمدح والفخر والغزل والوصف مدروسة دراسة عابرة تقدم إلى هذا الشاب الغض نبذة فجة تشرح ألفاظها وتعرب وتجرى استعاراتها وتوضح بعض غوامضها ثم يشار إلى مولد الشاعر ووفاته وتذكر جمل فى بعض صفاته وترتجل عبارات فى دراسة عصره .

وليست دراسة اللغة الأجنبية أوفر حظاً من دراسة اللغة العربية وآدابها وقد يكون فى بعض المناهج لغتان أجنبيتان إحداهما إجبارية والأخرى اختيارية .

فاذا أنت استعرضت مواد المناهج مثل هذا الاستعراض أدركت مبلغ

الارهاق الذى يعانيه التلميذ وتراءت لك المدرسة ميدان صراع عنيف بين فريق الطلاب وفريق المعلمين .

فريق الطلاب الذين يرون بين أيديهم رابية من ركام الكتب المشحونة بقواعد المعرفة والتمارين المملة التى لا حدود لها ولا ضابط ولا فائدة إلا أنها ضخمت الكتاب وأثقلت كاهل هذا الطفل ومن بعدها الامتحان المخيف المنتظر الذى يفصـــل فى مستقبله بدرجة أو درجتين أو فى سهو وتقصير فى درس أو درسين .

وأما فريق المعلمين فان وراءهم المفتشين يراقبونهم ويلاحقونهم فى إتمام المـــادة وسرعة إيصالها قبل نهاية العام .

فمادة اللغة العربية لابد أن تتم مفرداتها ومواد الجبر والحساب والهندسة والمثلثات والطبيعة فى فروعها جميعها لا مناص من إكمالها وصحائف التاريخ والجغرافية ونصوص اللغات الأجنبية والمحفوظات والانشاء كل أولئك وإن كانت تزدحم فى ذهن هذا الناشىء ازدحاماً غير واضح الخطوط فيها المبهم والغامض والمتنافر والصادق والكاذب وفيها المفكك الأوصال وفيهـــا الخطأ والصواب فلا بد أن تصل .

هنا يدرك المرء علة كره الطفل لموطن العلم ، ويفهم كيف يذهب الفتى المراهق متثاقل الخطا إلى المدرسة الثانوية تملأ ذهنه وساوس المراهقة وتتضارب الآراء فى مخيلته المتوثبة المتطلعة إلى المعرفة ، الشاكة فى كل شىء المعتزة بشخصيتها التى تريد أن تركض بالحياة ركضاً . بيد أن هذه الحيوية تمشى وئيداً على عينها غطاء قاتم اللون وفى جوانحها رهبة المدرسة فى المدرس والرئيس والامتحان والنجاح والسقوط ورهبة البيت الذى نفخ فى روحه الغرور ووضع أمام عينه الهدف الذى يهدف إليه فى كسب العيش دون أن يعرف ميوله وقدرته ثم تلاحقه رهبة المجتمع المضطرب القاسى الذى لا يرحمه إلا إذا كان مستنداً إلى جدار لا ينقض من المحسوبية والعصبية ، وهكذا تشرع تتراكض فى أعماق فؤاده وساوس الانس والجان ، ينتظر الساعة التى ينفجر فيها أترابه من الطلاب لتشيع الفوضى ويقف الدرس الممل فيهجر المدرسة وينتظر الساعة التى يتخلف

فيها المدرس عن المدرسة لحادث ألم به فتنقص مادة من مواد هذا المنهج المرهق ربما يعفون من الامتحان فيها .

والمدرسة قاسية شديدة القسوة والامتحان مقبل لا يصفح ، فيصطدم الناشىء بصخرة صلدة ويبقى يتأرجح حائر الفكر ، إما أن يعتمد على ذاكرته فيحفظ كل ما تقع عينه عليه عن ظهر قلب حتى التمارين والنظريات الهندسية وإما أن يلجأ إلى الغش والمحسوبية أو وسائل أخرى ، وفى هذه الحالة إذا نجح لا ينجح إلا كسيحاً يتوكأ على عصاه ويدخل المجتمع مضطرباً يتخذ أحد طريقين : طريق المكر والخداع أو طريق العصبية وهو فى الحالين أشل .

وإذا نجح عصامياً نجح منهوك القوى ضعيف الشخصية مثقلا بمواد المعرفة لا يعرف كيف يتصرف بهـا ، وإذا سقط بلغ اليأس منه مبلغه وتطرق فى كل حركة من حركاته وأصبح خطراً على المجتمع يتطرف فى مبادئه وعقيدته ، فى سلوكه مع أترابه ومحيطه ودولته .

إنك إذا نظرت إلى هذا التراث الضخم المتراكم من رواسب المـاضى فى المناهج والكتب الضخمة وجدت أن التربية فى مناهجنا تتجه إلى تكثير المعرفة لا إلى تربية الارادة وإلى تكوين الآلة الكاتبة لا إلى إيجاد الشخصية المستقلة .

إن مثل الفتى فى مرحلة التعليم الثانوى كمثل البراعم المتفتحة ، تريد ماء رويا وطلا نديا وتربة خصبة وشمساً مشرقة لتورق وتزدهر ثم تثمر وتنضج وتؤتى أكلها ، فاذا أغرقها المـاء واستقر حول جذع شجرتها غصت به فذوت وذبلت وآضت غثاء أحوى كذلك هوسن الفتوة فيه القوة والرغبة إلى الاستقلال والاعتزاز بالصراحة والكرامة فاذا ربيت إرادته قويت فيه موهبة الايجاد وتفتحت فيه نوافذ الملاحظة المرهفة وتعاون عقله وخياله على ربط المقدمات بعضها ببعض للوصول إلى حكم صحيح مسمط وبرزت «أنا» فى هذا الفتى فى كل فرصة من فرص الحياة التى تمر به ، إنه يحب الرفقة والجمع ويشعر بقوة شخصيته فى هذه الجماعة ولا يكون هذا تناقضاً بين الأنانية وبين الاندماج فى الجماعة لأنه يفكر فى ظهوره بهذا الاندماج ويجعل المسائل العامة غذاء طموحه وإجابة أنانيته

فيجب أن تنصرف التربية فى هذا الدور إلى معرفة تامة مع تهيئة جو ملائم لظهورها وتوجيهها . فاذا انصرف المعنيون بالتعليم إلى تكثير المعرفة فليعلموا أنهم يخطئون الهدف وليعلموا أن فى النفس إشراقاً تكبته الكثافة كمثل الذبالة كلما زاد زيت سراجها اختنق الضوء ولا تضيء شعلتها إلا إذا كان الزيت بمقدار .

« وتكثير المعرفة فى مثل ذلك التوجيه كثافة كابتة ، لا ريب فى ذلك ».

إن أول واجب من واجبات التربية عرض هذه الخصائص وفهمها ليكون المعلم على بينة منها .

فاذا عرفت سهل على المعلم تهذيب الارادة والوصول إلى إيجاد الشخصية التى تقدر الناشىء على فهم الحياة التى يعيش فيها فهماً يؤهله للإفادة والاستفادة والوصول إلى مجتمع أفضل .

* * *

إن الشرق العربى مقدم على تطور اقتصادى وسياسى واجتماعى واليقظة شاملة تبشر بسرعة هذا التطور ، إننا مقدمون على إنشاء أجيال تحمل على عواتقها عبء هذا التطور ، ولكن لن يتم ذلك إلا إذا وضح لدينا إننا خلقنا فى هذه الحياة لنستكمل أسباب الحياة وإن استكمال أسباب الحياة لا يتم إلا فى معرفة أنفسنا ومعرفة ما يحيط بها من خواص المحيط ومن ثم أقدار الفرد منا على استثمار هذه الخواص إلى أقصى حد ممكن فى سبيل بقاء النوع وانتظام المجتمع ، ولكى يعرف الفرد مكانته يجب عليه أن يعرف علاقته بأخيه علاقة الانسان بالانسان ثم يعرف ماله وما عليه .

على هذه الأصول يجب أن ترتب مواد المعرفة فى تهذيب القوى العاقلة وتدريب الملاحظة وإيجاد المهارة .

إذا تم ذلك تكون رأى فى هذا المجتمع يشعره بمكانته بين المجتمعات وبذلك تترابط حلقات الانسانية بعضها ببعض بين الفرد والفرد وبين الأسرة والفرد ، والأسرة والمجتمع والحكومة والمجتمع لتتكون الدولة على أصح ما يمكن وتقتعد مكانها بين الأمم .

* * *

لذلك أصبح لزاماً علينا أن نعيد النظر فى مناهجنا ونبدل هذه الطريقة البالية التى تسير على تكثير المعرفة وكبت المواهب وقتل النشاط وإشاعة الفوضى فى الأفكار المزدحمة فى ذهن الناشىء وتتحول إلى إيجاد مدرسة مكتملة الحلقات فى الروضة والمدرسة الابتدائية والمدرسة الثانوية أساسها توسيع المدارك وتقوية النشاط فى الروضة واقدار الطفل فى المدرسة الابتدائية على إجادة القراءة والكتابة والحساب فيما تقدمه له من هذه المواد مع العناية بتهذيب ميوله وغرائزه وإشعاره بالقدرة على الاستفادة مما حصل عليه والتصرف فى بعض شئون حياته ومجتمعه .

فاذا انتقل إلى المدرسة الثانوية وجد الفرصة مهيأة له فى إكمال تحصيله بين أساتذة قديرين يعينونه على إظهار مواهبه ويوجهون هذه المواهب إلى ما يلائمها من صنوف العلوم والفنون وإقداره على إجادة المواد التى تقدم اليه فى مناهجه كى يستفيد منها فى الحياة فيعرف كيف يعيش فى مجتمعه وكيف يقدر على تدوير شئون حياته وحل مشكلاتها ويجد الطريق معبداً سهلا لاكمال تحصيله العالى فى أى فرع من فروع المعرفة .

ومن هنا نجد أن المدرسة الصالحة ترتكز على أصول أربعة مهمة : أولها تكافؤ الفرص ، ثانيها وضع كتاب صالح لمنهج صالح فى تربية الشخصية ، وثالثها إيجاد المعلم الذى يعين على ذلك ، ورابعها تحديد الزمن الذى يمكن أن تنمو فيه هذه الشخصية نمواً طبيعياً .

• • •

لقد كان من رغبات الوفود العربية فى اللجنة الثقافية لجامعة الدول العربية التى انعقدت فى عمان صيف ١٩٥٢ أن تتوحد أعوام الدراسة فى مراحلها الابتدائية والثانوية فى البلاد العربية جميعها وأعتقد أن الغرض من ذلك كان من أجل توزيع مواد المناهج توزيعاً متساوياً فى تلك المراحل تمهيداً لتوحيدها وهى رغبة قد يحققها الزمن إذا أعيد النظر فى وسائل تكوين الأجيال ؛ فان البلاد العربية لا تزال مدارسها مختلفة المناهج والأزمان ولا تزال مواد المناهج متباينة التوزيع متأثرة برواسب الماضى ، وسواء عندى أكانت السنون متساوية أم غير متساوية فان المهم انتخاب مواد المناهج وترتيبها ترتيباً يوائم

اسنان الناشئين ويكفل ترويض عقولهم وتربية مواهبهم وإكسابهم المهارة والحذق وتهذيب الذوق الفنى وتقويم الخلق وتكوين شخصية مبدعة قادرة على حل معضلات الحياة .

لذلك يجب أن تتحدد مراحل التعليم وتتفرع سنوات الدراسة حسب فروع العلوم والفنون فتكون مرحلة التعليم الالزامى ثمانى سنوات تبدأ من سن السادسة إلى سن الرابعة عشرة ويجبر ولى أمر الناشىء إجباراً على تنفيذ ذلك .

وتقسم هذه المرحلة قسمين : القسم الابتدائى ومدته ست سنوات ، والقسم المتوسط ومدته سنتان يقضيهما الناشىء فى مدرسة مهنية زراعية أو صناعية أو تجارية أو ينتقل مباشرة إلى المدرسة الثانوية ويقضى السنتين على حساب التعليم الالزامى ومن بعد ذلك إن شاء استمر وإن شاء ترك .

وفى سن الرابعة عشرة يبدأ التوجيه فيوجه الطالب إلى ما يظهر من ميوله ورغباته .

أما المدرسة الثانوية فتكون مدتها ست سنوات : سنتان للثقافة العامة وتكوين المهارة ، والسنوات الأربع الأخيرة للتخصص حسب ميول الناشىء للزراعة والصناعة والتجارة والعلوم والآداب والاجتماع فيخرج الناشىء إلى المحيط فى سن الثامنة عشرة إما إلى العمل فى الحياة وإما إلى الاستمرار فى الجامعات .

إذا انتقل الناشىء إلى المرحلة المتوسطة التى يجب أن يقضى فيها سنتين إكمالا للتعليم الالزامى وجب أن يجد أمامه منهاجاً يلائم محيطه الذى يعيش فيه فى الحضر والريف ، فيؤكد فى منهاج ابن الريف على معرفة أساليب الزراعة وخواص التربة والأسمدة ودراسة الآلات الزراعية وتربية الدواجن ومعرفة بعض الأحوال الاقتصادية والجغرافية لمحيطه والصحة الشخصية ودروس التعاون والضمان الصحى والتدريب على الأعمال الكشفية والحوالة والمنظمات التى تساعد الآخرين فى أوقات الحصاد أو نزول القحط والفقر والمرض ، وأن يعد حقل نموذجى فى كل قرية وفى كل جمع من قرى متعددة متقاربة ليكون مثلا يحتذى ويكون هذا الحقل مركزاً للارشاد الزراعى والاجتماعى .

ويتجه تعلم البنات فى هذه المرحلة (المرحلة المتوسطة) إلى تعلم ما يلزم الأمومة وتدبير المنزل والتمريض وتربية الدواجن واستعمال الآلات الزراعية .

ويؤكد فى منهاج ابن الحضر على معرفة بعض الأعمال فى التجارة والحدادة والسباكة والكهرباء والآلة الكاتبة وإمساك الدفاتر وما يشبه ذلك مما يحتاج إليه المحيط .

إن مناهجنا متخلفة عن مناهج الأمم مع أن مبادئ العلم قد رتبت ترتيباً يوصل إلى الذرى منها ، فعلينا أن نوجد منهجاً تكون مواده موافقة لأسنان الناشئة وأن نحدد زمناً كافياً لمنهاج كفء فى التعليم الثانوى وأن نتخذ فيه أحد سبيلين : إن قصدنا منه إعداد الطالب للمعيشة أكدنا فيه على تعليم الحرفة كإتقان ميكانيكية السيارات والطباعة وصناعة النماذج والقوالب والبناء وما أشبه ذلك ، أو معرفة الاقتصاد الزراعى وإدارة المزارع والغلات إن أراد حرفة الزراعة ، أو دراسة القانون التجارى والشركات والجمعيات التعاونية وإمساك الدفاتر والحساب التجارى ومبادئ الاقتصاد والمراسلات وكتابة الآلة الطابعة ومعرفة الآلات الحاسبة إن أراد حرفة التجارة . ويدعم هذا التعليم بالتجارب والمشاهدة وتتخذ الحقول والمصانع والمؤسسات وسيلة للتدريب وتساهم السينما فى أنواع التدريب الزراعى والاجتماعى والمهنى جميعها على أن يكون هناك تنظيم وثيق بين المدارس والمصانع الأهلية والشركات. وتقوم الدولة بهذا التنظيم على أساس متقن يكفل حق الناشىء وحق المؤسسة وتتوخى الدولة دائماً رفع مستوى الناشئين حتى تصل بهم إلى المهارة المطلوبة .

وإن أردنا بالطالب الاستمرار على التعليم أكدنا فى المنهج على ما يبعث فيه الميل ويخلق الاستعداد للبحث العلمى الذى تطلبه منه الكليات .

* * *

ولا يفوتنى المربين المولعين بتكثير المعرفة وضخامة الكتب[1] وعديد

---

(١) إن هذه الضخامة نتيجة للمكافأة ، ففى بعض البلاد العربية يأخذ المؤلف مبلغاً محدوداً على كل ألف كلمة ، وفى بعض البلاد الأخرى يأخذ المكافأة على كل صحيفة وهذه المكافأة فى الحالين لها حد أدنى وحد أعلى .

التمارين التى لا تحصى ووضع الأحاجى فى كتب الكيمياء والطبيعة والهندسة والمثلثات أن ترويض العقل على ترتيب مقدماته وصحة أحكامه غير منوط بتمارين الرياضيات وسرد حوادث التاريخ ، ووصف ثروات الأمم وطبائع الأرض وذكر أسماء البلاد فى كتب الجغرافية وتنميق عبارات الوعظ فى التربية الوطنية وحفظ بعض المقطوعات فى الشعر فى أنواعه المختلفة وقراءة بعض النصوص النثرية .

فقد يستفيد العقل فى ترويضه بقاعدة من قواعد الاعراب فى اللغة أكثر مما يستفيد من مسألة حسابية فيها ملايين الجنيهات أو الأمتار وأنواع العمليات فى الجمع والطرح والضرب والتقسيم ، وقد تسمو النفس بقطعة موسيقية فريدة واضحة أكثر مما تتأثر بوعظ فيه ترغيب وترهيب .

إن فى عرض حادثة من حوادث التاريخ عرضاً صحيحاً ، وفى مشاهدة منظر من مناظر الطبيعة ورسمه وتخيله وفى عرض ظاهرة من ظواهر الكون فى الجغرافية ؛ فى كل ذلك ترويض للعقل وتكبيره وإرهاف للملاحظة وبعث للنشاط .

إن توزيع مواد المنهج فى الدراسة الثانوية على ستة أعوام توزيعاً منظماً يقضى فيه على التطويل ويعطى للطلاب فى هذه المرحلة مجالا لتربية الارادة وتكوين الشخصية .

وليعلم المربون أن مائة تمرين فى الجبر فى دراسة عام يستطيع معها الطالب أن يقوم بوظائفه الاجتماعية والعملية فى نطاق مدرسته ويتصل اتصالا وثيقاً بالحياة أجدى عليه من حل تلك الآلاف المؤلفة من التمارين التى تكبت مواهبه وتضيق عليه الخناق وتحبسه فى دائرة ضيقة لا تعدو داره ، وكتابه وتخلق فى نفسه العقدة التى تجتمع اليها عقد أخرى .

إن عنايتنا فى مناهجنا يجب أن تجهز كل فرد بمهنة ، وتخرجه للوجود مسلحاً بالمهارة والحذق ، وأن تتجه إلى تربية الارادة وتكوين الشخصية المبدعة ؛ فى تربية الإرادة القوة والجمال والإبداع .

الدكتور محمد بديع شريف